آفاق الثقافة والتراث

مجلة
فصلية
ثقافية
تراثية

تصدر عن دائرة البحث
العلمي والدراسات
بمركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث

السنة السادسة ، العددان الثاني والعشرون والثالث والعشرون - جمادى الثانية ١٤١٩ هـ - أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م

مخطوط الكواكب الدرية وتخميساتها - ٨٥٧ هـ

MANUSCRIPT " AL KAWAKIB AL DURRYA WA TAKHMISATIHA" 857 (A-H)

الاستشراق الألماني المعاصر

الدكتور: محمد أبو الفضل بدران

قسم اللغة العربية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

أغفل إدوارد سعيد في كتابه الذي صنفه عن الاستشراق[1] - عن عمدٍ - الاستشراق الألماني ، وربما كان عامل اللغة حائلاً بينه وبين الحديث عن المستشرقين الألمان. وعلى الرغم من أن بعض الدراسات التي تناولت الاستشراق الألماني أبحاث جادّة ومفيدة ، ألقت بعض الضوء على بعض المستشرقين الألمان ، إلا أننا بحاجةٍ إلى دراسة جادة تتناول الاستشراق الألماني كله ؛ لما يحتله هذا الاتجاه من أهمية بالنسبة لنا نحن العرب ، إذ إننا موضوع الاستشراق تراثًا وتاريخًا وواقعًا واستشرافًا ، وسواءٌ علينا أوافقنا على نتائجهم أم لم نوافق ، لن يقلّل ذلك من أهميتها ، ومن ثمّ دراستها ونقدها.

وقبيل أن أتناول الاستشراق الألماني المعاصر أود أن أذكر هنا عدة أشياء تساعدنا في فهم واقع الاستشراق الألماني:

أولاً : لم تستعمر «تستخرب» ألمانيا أي دولة عربية، ومن هنا ينتفي الغرض الاستعماري «الاستخرابي» عنها، وقد يقول قائل: ربما لو استطاعت لفعلت، ولكن هذا القول غير مقبول منهجيًا، فعلى الباحث أن يحلّل الأحداث التي وقعت، لا الأحداث التي من المفترض أنها وقعت!!

وربما كان هذا البعد ذا أهمية في نقد المستشرقين الألمان؛ إذ إنهم لم يكونوا أدواتٍ استعمارية.

ثانيًا : يجب ألا نغفل التوسعات الطموح لهتلر نحو السيطرة على كل العالم، ولكننا يجب ألا ننسى أيضًا أن بعض الدول العربية والإسلامية كانت واقفة إلى جواره وقوفًا حقيقيًا أو معنويًا، لا حبًّا فيه، بل كراهيةً للاستعمار البريطاني، الذي كان يجثم على أرضها. وقد كان كتاب هتلر (كفاحي) من العوامل التي ساعدت على الاهتمام باللغة العربية، وربما لا نعجب إذا عرفنا أن أهم

معجمٍ عربي في اللغة الألمانية قد وضع لاهتمام سياسي بترجمة كتاب (كفاحي) لهتلر.

ثالثًا : إن الموقف الألماني في عهد هتلر كان ضد اليهود، ولعل قراءة في كتاب هتلر السالف الذكر توضح إلى أي مدى كانت الكراهية في صدره ضد اليهود، ولم يكن فردًا في ذلك التوجه، بل كان يعبّر عن قطاعٍ كبير من الشعب الألماني، وربما كان ذلك من العوامل المساعدة التي حدت ببعض المستشرقين آنذاك إلى الاهتمام بتاريخ اليهود السيىء ضد شعوب العالم، مما صادف هوى لدى العرب والمسلمين.

رابعًا : من السذاجة أن أقول إن الاستشراق الألماني المعاصر محايد أو مع العرب والمسلمين في قضاياهم، وليس ذلك لمصلحة العرب ولا المسلمين؛ لأننا في حاجة إلى من ينقدنا بمنهجٍ علمي، قد نتفق معه وقد نختلف، لكننا أحوج ما نكون إليه، حتى نرى نظرة الآخرين إلينا، لا كما نرى ذواتنا من خلال منظار تضخيم الذات وإعلائها. ومن هنا لا بدّ لنا من بيان حقيقة أن بعض المستشرقين الألمان ضد العرب، وضد المسلمين، وضد المنطق أحيانًا، إلا أننا في حاجةٍ إلى هؤلاء وإلى أولئك، حتى نعرف موطىء أقدامنا في عالمٍ معاصر متغيّر، يسبح فوق بحار الكونية والعولمة، وتختفي فيه المساحات والرؤى الأحادية.

وحتى نكشف هؤلاء الذين يسيئون إلينا وإلى تراثنا ودِيننا ينبغي علينا قراءتهم، ومن ثمّ نقد ما يكتبون، بغية الوصول إلى الحقيقة، لا بدّ لنا من توضيح دور المستشرقين الألمان حيال اللغة العربية والعرب:

أولا : حفظ المخطوطات العربية

من المؤسف ومن المفرح في آنٍ واحد أن آلاف المخطوطات العربية والإسلامية قد وجدت طريقها نحو المكتبات الألمانية، وربما لو ظلّت قابعة في بيوتنا لقُضي عليها. وقد آلت إلى المكتبات الألمانية بالجامعات والبلديات من خلال الشراء أو الاستيلاء من الأقطار العربية، لكنها - وبحق - وجدت من يسعى إلى الحفاظ عليها وتصنيفها وفهرستها والعمل على تحقيقها، وإن نظرة إلى أعداد هذه المخطوطات توضّح لنا أهميتها بصفتها ذخائر تراثية لا تُقدّر بثمن.

وقد نالت مكتبة برلين الوطنية نصيب الأسد من هذه المخطوطات؛ إذ إن عدد المخزون فيها يربو على عشرة آلاف مخطوط، فُهرست في عشرة مجلدات.

وفي مكتبة جامعة جوتنجن حوالي ثلاثة آلاف مخطوط من نفائس التراث العربي. وفي مكتبة جامعة توبنجن بجنوب ألمانيا العديد من ذخائر المخطوطات، ناهيك ما بها من إصدارات العالمين العربي والإسلامي من كتبٍ مطبوعة ودوريات منذ اختراع المطبعة. وقد جاوز عمر بعضها مائة العام، واختفت من المكتبات العربية، وصار الحصول على بعضها ضربًا من المستحيل. بينما كلُّ ذلك متوافرٌ بمكتبة جامعة توبنجن، مما يجعل دورها دورًا ثنائيًا في خدمة المخطوط من الفكر العربي والمطبوع منه، ولقد عثرتُ في إحدى زياراتي على مخطوطٍ فريد في العروض العربي هو مخطوط «كتاب العروض» لعلي بن عيسى الربعي (ت ٤٢٠هـ)، وقمت بتحقيقه، وعلى الرغم من مضيّ أكثر من ألف عامٍ على المخطوط إلا أن حالته جيدة. وقد اغتظت ذات مرة من المبالغة في حفظ المخطوطات، فقد كانت إحدى موظفات المكتبة ترمقني وأنا أقلّب أوراقه، وطلبت مني أن تقلّب لي المخطوط بدلاً عني، فصحت بها في لطفٍ ممازحًا: ربما يكون هذا المخطوط بخطّ جدي! فأردفت قائلة بذكاءٍ حادّ: لكن لم يحافظ عليه أبوك! وربما كانت على حق في ذلك، حتى لو قلنا إنهم قد سرقوا هذه المخطوطات!

ثانيًا : تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية

لم يقتصر دور المستشرقين الألمان على الحفاظ على المخطوطات، إنما عمدوا إلى تحقيقها تحقيقًا علميًا ذا فهارسَ متعددة، واستوجب تحقيقهم وضع مؤلفات تُعدُّ عُمدًا في موضوعاتها، كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الذي وضعه المستشرق الألماني فلوجيل Flugel، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ومعجم شواهد العربية، وهي بحقّ مؤلفات رائدة، يعتمد عليها المحققون العرب. وقد قام بعض العرب بالسطو عليها، وكتبوا أسماءهم على أنهم مؤلفوها، وربما تواضعوا وذكروا اسم المستشرق الألماني في سطرٍ في مقدماتهم الطويلة!

وقد حقق المستشرقون الألمان عددًا كبيرًا من أمهات التراث العربي، كالكامل للمبرد، وتاريخ الطبري، الذي استغرق تحقيقه تسعة عشر عامًا من العمل الدؤوب المتواصل، ومعجم البلدان لياقوت، والمفصل لابن يعيش، وكتاب الآثار الباقية للبيروني، وبدائع الزهور لابن إياس، وطبقات المعتزلة لابن المرتضى، ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والفهرست لابن النديم، ومؤلفات ابن جني، وعدد كبير من دواوين الشعراء القدامى. وقد عكف إيغالد فاجنر على ديوان «أبي نواس»(٢) قرابة عشرين عامًا حتى أكمله تحقيقًا.

وهو دورٌ يجب أن يُحمدوا عليه. وقد يُقال إن بعض ما حققوه كان اختيارًا متعمّدًا لبعض الكتب التي تُعنى بالفِرق الإسلامية واللهجات، وهي مقولة صحيحة، لكن جلّ تحقيقهم كان بعيدًا عن ذلك، فما علاقة تحقيق المعلّقات بحالة العرب الآن وتشرذمهم وتخاذلهم؟!

كما أن أخطاء كثيرة وقعت في تحقيقاتهم، وهذا أمرٌ منتظر، فسِرّ العربية عصي على أبنائها، فكيف على غير أبنائها؟ وقد جاءت بعض الأخطاء نتيجةً للتصحيف والتحريف: فقد قرأت لأحد المستشرقين تحقيقًا لكتاب ورد فيه مقولة: «أشهر من قفا نبك»، فقرأها مصحَّفة، وظنها بعد تصحيفها اسمًا لشخصيةٍ مهمة، فقام يبحث في المعاجم وكتب التراجم عن هذه الشخصية، ومن عجب أنه قد وجد أن قائدًا تركيًا قديمًا كان يدعى بهذا الاسم، فعزا إليه الشهرة! ولم يهتد إلى أنّ المقصود بهذه العبارة معلقة امرىء القيس المبدوءة بقوله: «قفا نبك..». لكن ذلك الأمر لا يخلو منه المحققون العرب الذين يخطئون في أشياء كثيرة، ليس مجال بحثها أو استقصائها هنا.

وأود هنا أن أنوّه بجهود مركزين هما: معهد الدراسات الشرقية في استانبول بتركيا، ومعهد الآثار والدراسات الشرقية في بيروت في العمل على تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية ونشرها في سلسلتين هما: المكتبة الإسلامية، وسلسلة بيروت، وقد أسهمتا في نشر الكثير من النصوص الأدبية المخطوطة وتحقيقها، كالوافي بالوفيات للصفدي على سبيل المثال.

ثالثا : تأليف الكتب والدراسات حول الفكر العربي والإسلامي

لا يمكن لأيّ دارسٍ في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار، كبروكلمان Carl Brockelmann وكتابه «تاريخ الأدب العربي»(٣) على الرغم مما ورد فيه من بعض الأخطاء، التي حاول دارسون عرب أن يتداركوها عليه، كما فعل عبدالله بن محمد الحبشي(٤). لكن يبقى لكتاب بروكلمان فضل السبق والتعريف بالتراث العربي والإسلامي المخطوط في جميع مكتبات العالم، وهو جهدٌ فرديّ، لم نستطع نحن – للأسف – فرادى أو جماعاتٍ أن نقوم به، وقد

أحسن الدكتور محمود فهمي حجازي حين جمع عددًا من المهتمين باللغة الألمانية في ترجمته لهذا الكتاب ترجمةً وافية إفادة للمتلقي العربي..

كما أن المعاجم التي وُضعت بالألمانية، كمعجم هانز فير Hans Wehr العربي – الألماني، وكذلك كتاب (العربية) ليوهان Johan Fuck معاجمَ رائدة. وقد تحدّث نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون)[٥] عن بعض المستشرقين الألمان، وعن مساهماتهم الفكرية. وقد وجّه بعض الباحثين نقدًا لهذه المؤلفات تركز في معظمه على الأمور التالية:

١ – إن معظم هذه المؤلفات قد اتجه إلى اللهجات، وأن هذه الدعوة لتعميم اللهجات ورعايتها لم تكن لصالح البحث العلمي، بل لإشعال الفتن المحلية والقوميات غير العربية، ولا أبرىء نفرًا منهم قصدوا إلى ذلك قصدًا، لكن ذلك لا يجعلنا نلقي دائرة الاتهام على الآخرين، وبيننا نفرٌ قد نحوا هذا المنحى. وإضافةً إلى ذلك يجب ألاّ نرى كل الأبحاث حول اللهجات المحلية أو العامية بعين الريبة؛ فقد تكون من أجل البحث العلمي الداعم للغة الفصيحة.

٢ – اتجه بعض الدارسين إلى وضع مؤلفاتٍ عدّة في التراث الروحي في الإسلام، وألقوا باللائمة عليهم؛ إذ إنهم قد اهتموا بالتصوّف – مثلاً – الداعي إلى الزهد وإلى الخلوة، وهذه نظرة ضيقة. فالتراث الصوفي من أجمل ما كتب في تاريخ الآداب العالمية، وأظنُّ أن تجاهله، أو التعالي عليه يفقد الأدب العربي والإسلامي رافدًا كبيرًا من روافده المتجددة.

ولقد جاءت جهودٌ بعض المستشرقين الألمان في دائرة التصوّف من أفضل ما كُتب فيه؛ إذ إن معظمهم أجاد عدة لغات إلى جانب العربية، كالفارسية والأُردية، وبعض لغات الهنود، والتركية، ولغات بعض الأقليات الإسلامية في ربوع الأرض، مع إجادتهم للغات القديمة، ومعظم اللغات الحديثة الحيّة، مما جعل نظرتهم في الآداب المقارنة تبدو أشمل وأكثر عمقًا.

٣ – رأى بعض الباحثين أن جُلّ كتابات المستشرقين الألمان مجّدت الفرق الإسلامية المناوئة، ورأت من واضعيها أبطالاً، وأضفت على المرتدين والمنافقين هالة من البحث والضوء: فمنهم من عُني بابن الراوندي وغيره من الزنادقة، ومنهم من أعلى من دور الشعراء الفاسقين كأبي نوّاس، وابن أبي حكيمة، وبشار، وغيرهم من شعراء المجون، وربما كان لهم في مقولة القاضي الجرجاني: «إن الدين بمعزل عن الشعر»[٦] حجة، بيدَ أنهم لن يجدوا حجةً في إذكاء روح التعصّب والطعن ضد الإسلام والمسلمين في بعض كتاباتهم.

رابعًا: نشر اللغة العربية في ربوع ألمانيا

انصبّ اهتمامهم على تعلّم اللغة العربية وتعليمها، ولقد كان للمعاهد الاستشراقية في الألمانيتين – قبل الوحدة – وفي الدول الناطقة بالألمانية كالنمسا، وجانب كبير من هولندا، أو بلجيكا، ولوكسمبورج، وغيرها دورٌ كبير في نشر اللغة العربية، قلّ أن نجد مدينة كبرى في ألمانيا دون أن نرى مركزًا لتعليم اللغة العربية، وبغض النظر عن المقاصد فإن ذلك اتجاهٌ محمود.

خامسا: ترجمة الأدب العربي إلى الألمانية

في ظلّ وجود حوالي خمسين ومائة مليون ينطقون بالألمانية، أو يجيدون قراءتها، تبدو ترجمة

أدبنا العربي إلى الألمانية مهمة، وقد قام بعض المستشرقين بهذا الدور الرائد، حيث وصل الأدب العربي إلى القارىء الألماني من خلالهم، وغدا نجيب محفوظ، وجمال الغيطاني، وجبران خليل جبران، ومحمد شكري، وغيرهم أسماء مشهورة في الأوساط الثقافية الألمانية.

وربما يعيب هذا الاتجاه عدم وجود خطة للترجمة التي تخضع للانتقاء الشخصي والمزاج أيضًا، بل إن بعضها لا يخلو من سوء القصد، كترجمة الأدب الذي يتحدث عن اضطهاد المرأة، بحيث تغدو أليفة رفعت أديبة كجونترجراس في ألمانيا، وتغدو الكتابات التي تتناول موضوع ختان البنات في بعض الأقطار العربية الإسلامية، والأقليات، والطعن في الإسلام هي الكتابات التي يتلقفها بعضهم للترجمة، لا من الأدب العربي فحسب، بل من آداب غير العرب، كما فعلوا بتسليمة نسرين التي ودُّوا أن يجعلوا منها سلمان رشدي الجديد، لكنهم أخفقوا، وعادت إلى أدراجها كسيرة.

سادسا : المجلات والمتاحف

هنالك عددٌ لا بأس به من المجلات المتخصصة في الآداب العربية والإسلامية، أو في أمور السياسة والاقتصاد بالمنطقة، وربما كان من أهم هذه الدوريات مجلة «عالم الإسلام» Die Welt des Islam التي يرأس تحريرها المستشرق اشتيفان فيلد Stefan Wild، وهي مجلة تعنى بالتراث والحداثة في الإسلام، وبها مقالات لا غنى للباحث عن الاطلاع عليها، مع العلم أن ما يُنشر بها لا يُترجم إلى العربية.

وهنالك مجلة «الشرق» Orient ويرأس تحريرها المستشرق أودو اشتاين باخ Steinbach، وهي مجلة تُعنى بالأمور المعاصرة في العالم الإسلامي المعاصر.

كما يجب ألا نغفل دور المتاحف الإسلامية المنتشرة في ربوع ألمانيا، ومعظمها يضم مجموعات فنية خاصة لهواةٍ من المستشرقين، جمعوها خلال رحلاتهم نحو الشرق، وإذا تجاوزنا عَرَضًا كيفية الجمع وما اعتراها من شبهات السرقة، فإن فتح أبوابها للجمهور مجانًا يعرّف المشاهد الأوربي حضارة الإسلام وفنونه المبدعة بما فيها من نفائس المخطوطات والمصاحف النادرة والأيقونات المدهشة، وغير ذلك.

بقي أن ألقي الضوء على أهم اتجاهات المستشرقين الألمان، وأستطيع أن أصنفهم في ثلاثة:

الاتجاه الأول :

الموسوعيون التراثيون

يرى هؤلاء أن التراث العربي والإسلامي بحرٌ يجب خوضه، وقد أنفقوا سنوات عمرهم في هذا التراث، قراءةً وتحقيقًا ونقدًا وتحليلاً، ومن أهمهم - كما أشرتُ آنفًا - بروكلمان Brockelmann، وفرايتاج Freytag، والشاعر والأديب فريدريك روكرت Ruckert، الذي اعتنى بشعر المعلقات، ومقامات الحريري، وترجمة ديوان الحماسة لأبي تمام، مع تعليقاتٍ وافية، وغير ذلك. ومنهم سيمون فايل Weil، ومارتن هارتمان Hartmann، وشبيتا Spitta، وأوجست فيشر August Fischer، ولِتمان Littmann، ونولدكه Theodor Nöldeke، وآدم ميتز Adam Mez(٧)، والمستشرقة الألمانية أنّا ماري شيمل Anne marie Schimmel، التي حصلت على جائزة السلام من رابطة دور النشر الألمانية في سنة ١٩٩٥. وقد صاحب منحها الجائزة نقاشٌ واسع بسبب موقفها من سلمان رشدي، ووجّهت إليها حراب النقد من كل جانب، إلا أنها صمدت، وألقت خطابها بحضور رئيس جمهورية ألمانيا في ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ في فرانكفورت قائلةً: «لم أجد

بـتـاتًـا في الـقـرآن، أو في الحديث، دعـوة إلى الإرهاب... وتمثّل القاعدة الذهبية القائلة: (عامل الناسَ كما تحب أن يعاملوك) ركنًا أساسيًّا في علم الأخلاق الإسلامي»(٨) ومضت تقول: «وليست معرفتي للإسلام مستمدة من البحث عشرات السنين في الآداب والفنون الإسلامية فحسب، بل كذلك من معاشرة الأصدقاء المسلمين من طبقات الشعب كافة في جميع أنحاء العالم، الذين استقبلوني في بيوتهم بود بالغ»(٩).

ثم تحدثت عن الحملة في الغرب ضد الإسلام والمسلمين قائلة: «إن الإسلام يوشك – إثر انتهاء المواجهة بين الكتلتين الغربية والشرقية – أن يصوّر على أنه العدو الجديد للغرب... وأعتقد أن الشعوب يمكنها أن تتحاور حوارًا أصيلاً يحترم فيه الطرفان أحدهما الآخر دون أن يعني ذلك القضاء على الاختلافات بينهما، بل البتّ فيها إنسانيًا، والسعي إلى التغلب عليها. ولكني واثقة أن الماء الرقيق الجاري سيقهر – مع الزمن – الحجرَ الصلب»(١٠).

وقد استحقت الكلمات التي قالها رومان هيرتسوج رئيس ألمانيا في الحفل المشار إليه آنفًا: «لقد استحقت الأستاذة أنّا ماري شيمل جائزة السلام: لأنها تهوى الفكر الإسلامي وتحبه... إنني أريد أن أوضح لكم كيف استطاعت بنجاح أن تساعدني في ترجمة الأفكار بين الحضارات والثقافات خلال مرافقتها لي في زيارتي للباكستان، وفتحت لي قلوب من تباحثت معهم من المسلمين... لقد مهدت لنا الطريق لفهم الإسلام»(١١).

وقد نشرت السيدة أنّا ماري شيمل أكثر من ثمانين كتابًا حول الإسلام والتراث العربي، ولكن لمّا يترجم أي كتاب منها إلى العربية بعد.

الاتجاه الثاني :

المستشرقون التراثيون المتخصصون

وهم كثر، ولعل منهم معظم أعضاء جمعية المستشرقين الألمان Gesellschaft æenländishche DMG Die Deutsche morg ، التي تأسست في سنة ١٨٤٥، وقد عقدت مؤتمرها العلمي السابع والعشرين في رحاب جامعة بون، وكنت من المشاركين فيه، وضمّ أكثر من خمسمائة مستشرق، واستمر من التاسع والعشرين من شهر سبتمبر حتى الثاني من أكتوبر ١٩٩٨، كما تنوعت الأبحاث بين التراث والمعاصرة، لكنها اتجهت نحو التخصص.

ولوحظ أن أعدادًا كبيرة من المستشرقين الشبّان قد احتلت مكانها بين جيل الكبار، وأهم الشبان: اشتيفان Stephan Guth äh ، وباتريك فرانكه Franke ، وفيرينا كليم Verena Klemm ، وغيرهم ممن تنوعت مشاربهم ورؤاهم تجاه الاستشراق، وحاولوا من خلال المناهج الحديثة استحداث مناهج جديدة في طرق التجديد في علم الاستشراق.

ومن الكبار: اشتيفان فيلد Stephan Wild، وانجيليكا نويفيرث Angelika Neuwirth ، وڤيبك فالتر Wiebke Walter ، وجيرهارد إندرس Gerhard Endress ، ومونيكا فاطمة مولبوك Monika Fatima Mühlbäck ، والمستشرقة جوردون كريمر Gurdrun Kraemer، وروتراود فيلاند Rotraud Wielandt وغيرهم ممن يستحقون أن أتناولهم في دراسةٍ وافية.

الاتجاه الثالث :

جماعة دافو DAVO

تعدّ جماعة دافو DAVO Deutsche Arbeitogemeinschaft Vorderer Orient Fuer gegenwartsbezogene forschung und Dokument (١٢)

من أحدث جماعات الاستشراق الألماني المعاصر، وتُعنى بالواقع الاستشراقي وبأمور الشرق الأوسط المعاصرة، وقد تأسست في هامبورج سنة ١٩٩٤ بقيادة المستشرق أودو إشتاين باخ Steinbach ، ووصل عدد أعضائها إلى خمسمائة؛ وعقدت مؤتمرها الخامس في الفترة من ١٩ إلى ٢١ نوفمبر ١٩٩٨ وربما تعدّ الجيل المتجدد والمتمرد في تاريخ الاستشراق الألماني؛ إذ وجهوا جلّ اهتمامهم إلى موضوعات جديدة، لم يكن الاستشراق التقليدي يوليها اهتمامًا كبيرًا كالسياحة في الشرق الأوسط، والدراسات الاجتماعية في بلدان المسلمين، والعوامل الاقتصادية والربط بينها وبين النظم السياسية وقراراتها، وكذلك البحث في جغرافية العمران وفي الإعلام، واستطاعوا أن يحلوا عقدة المستشرقين الألمان من الإعلام؛ إذ كانوا دومًا في عزلة. أما هؤلاء فإنهم يناقشون وسائل الإعلام، وخرجوا من خلواتهم للمساهمة في تشكيل الرأي العام. وأستطيع أن أقول إن الفارق الأكبر بين جمعية DMG وجماعة DAVO أن الأخيرة لا تهتم بالتراث ولا بدراسته، بل جلّ اهتمامها منصب على الواقع المعاصر بكل أبعاده، وربما كان لهم في المستقبل الاتجاه الأكبر في عالم الاستشراق الألماني المعاصر.

بقيت كلمة ينبغي مناقشتها في هذا المجال حول مستقبل الاستشراق الألماني. إن المتتبع لحركة الاستشراق الألماني ربما يعود بها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن البداية الحقيقية المنظمة ولدت على يد جمعية المستشرقين الألمان DMG ، وهي في منعطف طرق. فجماعة DAVO استقطبت الشباب، كما استقطبت من لم يجد له دورًا في DMG من كبار المستشرقين؛ لأنها قد احتفظت بطابع تقليدي وطقوس جامدة، لم يجد فيها الشباب دورهم، ولم يجدوا فيها ما يصبون إليه. فأعضاء الجمعية الكبار وجهوا اهتمامهم - كما رأينا - إلى علوم الشريعة، والفلسفة الإسلامية، والفلك، والنحو، والمعاجم، والتحقيق، والشعر، والنثر، وهي أمورٌ لم يعد أيٌّ من الشباب من يتحمس لها كثيرًا، لكن هذ الجيل الجديد لم يهتم كثيرًا بعلوم اللغات الشرقية القديمة، وإنما يود أن يقفز عليها معتمدًا على مصادر باللغة الألمانية والإنجليزية وأحيانًا الفرنسية مغفلاً المصدر العربي حتى لو كان مختلفًا معه.

إضافةً إلى ذلك نجد أن المستشرقين الألمان لديهم مناهج يستخدمونها في أبحاثهم الجزئية، لكننا نفتقد منهجًا كليًا للاستشراق نفسه، وهذه نقطة في غاية الأهمية. ولقد خدم بعض المستشرقين الكنيسة، بل إن بعضهم كان من الرهبان مثل كراملش Gramlich ؛ ولكن هذا الدور يظل محدودًا لانتشار الاتجاه العلماني بين الشعوب، وتحوّل بعض الكنائس في ألمانيا إلى مزارات سياحية، بل لم يجد أحد القساوسة بُدًّا من تأجير إحدى الكنائس إلى تاجر، جعلها مخزنًا لبضائعه، عندما رأى أنه لا يرتادها أيّ من المصلّين. ولكن هذا لا ينفي وجود بعض المتعصبين ضد الإسلام، وليس بالضرورة أن يكونوا مع المسيحية. ولقد وجد بعض المحايدين أنفسهم في حالة حرب ضد الإعلام الغربي الذي يكيل التهم للعرب والمسلمين ليل نهار، فساير بعضهم الإعلام، بل تحوّل واحد منهم، مثل كونسلمان، إلى بوق إعلامي خطير ضد الإسلام. لكن المستشرقين الألمان لا يعدونه واحدًا منهم؛ لأنه نشأ إعلاميًا وعمل في الحقل الإعلامي.

لكل ما سبق يظل الاستشراق الألماني

بمعزل عن الاستشراق الأمريكي والبريطاني والفرنسي، ويظل له نكهته المميزة حتى لو اختلفنا معه وإنا لمختلفون، بيدَ أن هذا الاختلاف يجعلنا نردد مع الشاعر الألماني جوته Goethe : «من عرف نفسه أدرك أن الشرق والغرب لا يفترقان»، وهي مقولة نحن في حاجةٍ إليها الآن بعد مضي قرنين ونصف على رحيل قائلها، الذي أراه من كبار المستشرقين الألمان، الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية وتأثروا بها، ولعل نظرة في ديوانه الشرقي الغربي تؤكد ما أميل إليه، وهاهو يسبّح:

«لله الشرق
لله الغرب
البلاد الشمالية والجنوبية
تنعم في سلام بين راحتيه
هو الوحيد العادل
يريد العدل للجميع
فتبارك من أسمائه المئة هذا الاسم
آمين»(١٣).

●●●

الحواشي

١ – يحمل الكتاب عنوان «الاستشراق».

٢ – Siehe: Rudi Parer: Arabistik und Islamkunde an Deutschen Universitaeten, Deutsche Orientalisten Seit Theodor Nöldeke, Steiner Wiesbaden, 1966.

٣ – طبع الكتاب في ليدن، وترجم إلى اللغة العربية وصدر عن دار المعارف بمصر.

٤ – في كتابه الذي وضع له عنوان: تصحيح أخطاء بروكلمان، الأصل – الترجمة.

٥ – المستشرقون :٢/ ٣٤٢ – ٥١٢.

٦ – الوساطة بين المتنبي وخصومه.

٧ – Part: Arabistik und Islamkende an deutschen Universitaten.

٨ – مجلة فكر وفن: ١٦ – ١٧.

٩ – المصدر نفسه: ١٦ – ١٧.

١٠ – المصدر نفسه: ١٧.

١١ – المصدر نفسه: ١٢.

١٢ – DAVO Vachrechten, September 1998.

١٣ – الديوان الشرقي الغربي.